الاعتراف بالعيوب

قال لي صاحب معجب بأناتول فرانس — أو مُقدِّس له — على أثر ما كتبته في الأسبوع الماضي عن «قيصر بورجا»: إذن أنتَ من دعاة التستر والمداراة في الأخلاق؟! وقبل أن يسمع جوابي في ذلك سألني: أوَ ليس الأفضل للعلم والبحث والأجدر بكرامة العقل والنفس أن نعرف «الطبيعة الإنسانية» على حقيقتها وأن ندرسها كما هي على بيِّنة بكل حسناتها وعيوبها؟

قلت ذلك أفضل ولا ريب، ولكن أأنتَ على يقينٍ أن هؤلاء الكُتَّاب الذين يسمون أنفسهم تارة بـ «الطبيعيين» وتارة بـ «الواقعيين» ويُسهِبُون في شرح شهوات الإنسان وتهوين شرها وتوطين النفوس على الإقرار بها والارتياح إليها، أأنتَ على يقينٍ أن هؤلاء الكُتَّاب يعرفون «الطبيعة الإنسانية» على حقيقتها ويدرسونها على بيِّنة بكل ما فيها؟

والحقيقة أننا لا نرى جهلًا بهذه «الطبيعة الإنسانية» أكبر من الجهل الذي يحرك تلك الأقلام باسم العلم والمعرفة والبحث الحديث والدرس الصحيح. فما كانت «الطبيعة الإنسانية» قط خلوًّا من حيِّزٍ كبيرٍ فيها تهيمنُ عليه «الحقائق المطلقة» التي لا يحيط بها العلم وتُنهضه وتُنهض الطبيعة الإنسانية كلها إلى طلب الكمال، والتفدية بالراحة واللذة ابتغاء ذلك المطلب المتجدد. ما كانت الطبيعة الإنسانية قط خلوًّا من جانبٍ موقوفٍ على «المجهول» يوحي إليها أن ما تعلمه من شأنها أقل مما تجهل، وأن حياتها في هذه الأرض خاضعة لذلك «المجهول» كل الخضوع من جميع جهاتها، وإن كانت هي لا تعرفه ولا تملك الوسائل التي تسلك بها إلى معرفته، فأين مكان هذا «المجهول» في آداب الطبيعيين والواقعيين؟ أي حسابٍ في كتاباتهم يحسبونه لذلك العالم المستتر الذي لا يفيدنا أن نُغمِض الأعين عنه، وأن نفترض بيننا وبين أنفسنا أنه في حُكم العدم؛ لأننا لا نقيسه بالأشبار ولا نزنه بالدراهم ولا نطرحه على مائدة التشريح؟ أي شيء تراه في أقوال أولئك

الطبيعيين والواقعيين يدلك على أنهم يدركون أننا نقيم في دنيا تسير بنا من حيث لا نعلم، وليس في دنيا نُسيِّرُها نحن إلى ما يَسرُّنا ويُرضِي شهواتنا، ونقف بها نحن عند ما يؤلمنا ويسوءنا؟ إن أولئك الطبيعيين والواقعيين يصفون لك الإنسان كأنه مخلوق مقتضب من الدنيا التي نَجَمَ فيها، لا يطالب بأن يحسب فيها حسابًا لشيءٍ غير ما يعلم ويفهم، ولا أن يمتنع من شيءٍ إلا ما يعرف له علة ظاهرة من المبدأ إلى الختام، ولا أن يسعى إلى شيءٍ إلا ما فيه له سرور وحظوة.

ويسألون: ما بال الإنسان يُحرِّم على نفسه اللذائذ التي تَسرُّه وتعجبه؟ فإن وجدوا لذلك مانعًا فلا يكون ذلك المانع إلا أنها تصيبه بضررٍ عاجلٍ أو آجلٍ في جسده! ويفوتهم أن تلك اللذائذ لو كانت إنما خُلِقَت لتسره وتعجبه — لا لأمرٍ آخر وراء هذه الغاية — لما صح أن يكون فيها ضرر له ولا محظور يصده، ولكانت مُبَاحة له مأمونة العاقبة كلما سَرَّه أن ينال منها ما ينال.

فكأن الإنسان الطبيعي الواقعي هو ذلك الإنسان الذي يعترف بالشهوات ويدين بها ويطمئن إليها، ولكنه لا يعرف أن مجاهدة الشهوات ونكرانها من مطالب الطبيعة والواقع في بعض الأحيان! وحجته في هذا أن الشهوات موجودة قوية في الغرائز والميول! كأنه كان يريد أن يُسلِّم بمجاهدتها وهي معدومة أو ضعيفة لا تحتاج إلى المجاهدة ...! وهذه هي الطبيعة الإنسانية كما يفهمونها! الطبيعة التي تجحد كل ما لا تفقه، وتأبى أن تبذل «للمجهول» حصةً من حظوظها ومسرَّاتها؛ لأن هذا المجهول لا يظهر لها، ولا يقنعها في المعامل الكيمية والمجلات الدورية بحقه الدائم المفروض عليها! هذه هي طبيعتهم الإنسانية فهل هي «الطبيعة الإنسانية» على حقيقتها؟! وهل هم يدرسونها كما هي على بيِّنة من كل ما فيها؟!

لا، فما طبيعة الإنسانية في هذا العالم المسيطر عليها إلا كالجندي في الجيش الكبير، لا بد له فيه من طاعةٍ ليس يعرف لها سببًا، وليس يلتمس لها علة. وسيبقى الإنسان كذلك — وإن قال بلسانه غير ذلك — ما بقي جزءًا محكومًا في هذا العالم المجهول، وسيبقى «للحقائق المطلقة» حصتها فيه سواء عليها أأصلح بينها وبين تفكيره ومعلوماته، أم وقف كلاهما من صاحبه على طرفي النقيضين.

وما كانت شهوةٌ من الشهوات الشيطانية التي يُخرِجُها من قماقمها في هذا العصر كُتَّابُ الواقع والطبيعة معدومةً أو منسية في العصور الماضية؛ أي في تلك العصور التي قضت

عليها الأديان والعقائد أن تسدل الستار على شهوات الجسد أو تنظر إليها بعين الريبة والتوجس، ولا كانت اللذائذ بغيضة إلى الناس أيام كانوا يَعفُّون عن ذكرها بهذا البذاء الذي تورط فيه كُتَّاب العصر الحديث، ولا كانت «الطبيعة الإنسانية» التي يلفقونها سرًّا مدفونًا مكتوبًا عليه أن يلبث في قبره إلى أن تبعثه معجزات «الريالزم والناترالزم» في القرن العشرين! كلا، ما كان شيء من ذلك كذلك، وإنما الذي كان أن القدماء قد أحسوا ما نحس، وأحبوا منه ما نحب، وأبغضوا منه ما نبغض، ثم زادوا علينا أن جعلوا للمستقبل نصيبه ورصدوا للغيب المجهول قربانه، وكانت علومهم ومعارفهم لا تُنَاقِضُ «الحقائق المطلقة» في أزيائها التي ظهرت لهم يومئذٍ بها، وبعبارةٍ أخرى لا تناقض الأديان والعقائد وما هو في حُكمها من المذاهب والفلسفات. فلما جاءنا العلم الحديث يخلع تلك الأزياء ويمزقها، ويرد كل لُحمَة فيها وسداة إلى نسيجها حسبنا أنها كانت أثوابًا لغير لابسٍ، وأغطية قائمة على هواء، وخلطنا بين الحقائق التي لا وجود لها والحقائق التي لا تقبل الحصر والإحصاء، والتي ستظل أبدًا مطلقة من كل قيدٍ لا تبدو للأعين إلا في كساءٍ من الرموز والكنايات. ومن حقنا نحن أن ننفي كل ما نقدر على نفيه بالدرس والبحث والتفكير، ولكن هل من حقنا — مهما بلغ الغرور منا — أن نؤكد أن الحقائق يجب أن تكون كلها محدودة محصورة قابلة للترتيب والتبويب؛ لأننا نحن لا نقدر على أي إدراك للحقائق في غير هذه الهيئة وبغير هذه الوسيلة؟ أفي العقول السليمة عقلٌ واحدٌ يشك في أن «الحقيقة المطلقة» موجودة وإن كنا نحن لا نستوعبها ولا يمكننا أن نصل إلى استيعابها؟ ومتى كانت هذه الحقيقة موجودة بيننا محيطة بنا فأي عقلٍ سليمٍ يَحِيكُ فيه الظن بأنها بعيدة منا مغلولة الأيدي عن الوصول إلى عقولنا ونفوسنا، والظهور في أخلاقنا وأعمالنا واتخاذ الأشكال المحدودة المحصورة التي تستوي بها بين أفكارنا وهواجسنا؟ أنقول إن العلم الثابت المقرر لا يقبلها على هذه الصفة ولا يدري كيف يوفق بينه وبينها؟ حسنٌ، لِنَدَعَ العلم إذن وشأنه فيما يدريه وما لا يدريه، ولنعلم أننا نحن نملك هذا العلم ونُسخِّره فيما نريد، أما الحقيقة المطلقة فهي تملكنا وهي تُسخِّرنا فيما تريد، ثم هي التي تلهمنا أن نوفق بينها وبين العلم على بعد ما بين الظواهر من خلاف.

لقد ظهرت «النسبية» على يد «أينشتين» في أوائل هذا القرن، ونعتقد نحن أنها ظهرت على النفوس مشربًا في الأخلاق قبل أن تظهر على الورق مذهبًا في العلوم. ومضى على الناس قبل «النسبية» زمانٌ طويلٌ كفروا فيه بكل رأيٍ مطلقٍ في الفضائل

والمحامد، وقاربوا بين أعلى المحاسن وأوضع المساوئ بسلمٍ ملتوي الدرجات من الشبهات والاحتمالات؛ فلا فضيلة تُحمَد على إطلاقها ولا رذيلة تُذَمُّ على إطلاقها، لا شيء — وإن عظم — إلا وفيه جانبه من الصغر ولا شيء — وإن صغر — إلا وفيه جانبه من العظمة، افعل ما شئتَ فلك مشبه في فعالك بين الكُبَراء والممدوحين، واترك ما شئتَ فلك مشبه في تركك بين العاملين والمقتدرين. وقد يضر الخير وقد ينفع الشر وقد تَحسُن النية والثمرة زرية قبيحة، وقد تَقبح النية والثمرة شهية جميلة، وهكذا وهكذا من فروض هذه «النسبية» التي مشت فيها المحامد إلى جانب المثالب، ولحقت فيها المساوئ بأذيال الكمالات، والتي سجلتها الأخلاق قبل أن تسجلها العلوم فأصبح لكل مليحٍ وجهٌ من الدمامة، ولكل دميمٍ وجهٌ من الملاحة، وبطل الجهد في طلب الأتمِّ الأكمل مذ صار أرفع العلو قريبًا من أوهد الحضيض في هذا الاعتبار.

وتقدمت «الديمقراطية» قبل ذلك فوسعت للفرد من الحرية إلى حدها الأقصى، وجعلته غرض نفسه يفعل ما يروقه وينبذ كل حقٍّ للأمة أو للإنسانية عليه فيما يخصه، فأصبح السرور هو دين العهد الجديد؛ لأنه مطلب يعرفه كل فردٍ ويتوق إليه بسائقٍ من طبعه غير ناظر إلى عواقبه فيما بعد لذته وحريته.

وربما كان من آثار الديمقراطية في الأخلاق — غير هذا — أنها أزاحت الستار عن أسرار سياسة الأمم؛ فزال غشاؤها الذي كان يحجب فضائحها وخبائثها واشترك الصغير والكبير في فهم ضروراتها وحبائلها، وعلم العِليَة والسِّفْلَة ما يكمن وراء الفتوح والغزوات والألقاب والمظاهر من الخسائس والدنايا؛ فالتبس عليهم الأمر وضعف الوازع الأدبي في ضمائرهم، وساءت ظنونهم بأصول الأخلاق ومقاييس الأقدار، ووقر في أذهانهم أن مقادير الأمم — بله الأفراد — لعبةٌ في أيدي الشهوات والأكاذيب بعد أن كانت ولا سلطان عليها في رأيهم لغير الله والمجد والشرف والأبهة والجلال.

ومِن دأب المدنية أنها تعقد التآلف بين نقائض النفس الواحدة، كما تؤلف بين أشتات الأمم البعيدة وأخلاط الشيع المتنافرة، فيلتقي خير ما في النفس وشر ما فيها وجهًا لوجهٍ في كل حادثةٍ وكل يوم، ويتعود الإنسان أن يطمئن إلى عيوبه المعهودة، وأن ترتفع الكُلفة بين خصاله المشروعة وعاداته المحظورة، فلا يتجهم حميدُها لذميمها ولا يخجل شريفُها من وضيعها، ثم لا تلبث الحواجز بينهما أن تقترب أو تتصل، ولا تزال العادة تُضعف

النفرة وتمحو الغضاضة حتى يجرؤ أردأ ما في النفس وأسوأ ما تحتويه من الخبايا المكتومة على البروز جنبًا إلى جنبٍ في وضح النهار مع أشرف سجاياها وأفخر مكارمها وطيباتها.

وهذه العادة المدنية هي سر التسامح الذي يمتاز به الحضري على سكان الريف وأبناء الأمم الجافية، وإنما مَدَارُه كما رأيت على التسامح بين أجزاء النفس الواحدة والتفاهم بين الجانب المشرق الظاهر منها والجانب المظلم المستور.

ولكن لا تَسامُح المدنية ولا تَبَذُّل الديمقراطية ولا انهيارُ العقائد القديمة القائمة على أسس «الحقائق المطلقة»، لا شيء من ذلك بقادرٍ على أن يُخرس في الفطرة الصادقة القوية ذلك الصوت الآمر الذي يفتأ يهتف بالإنسان في أعمق أخلاده أن «للمجهول» حسابًا يُحسَب، وأنه هو جزءٌ محدود من كلٍّ لا حد له، وأنه بعد أن يُوفِّيَ نفسه حظها، وبعد أن يرعى للمجتمع حقه، وبعد أن يرضي في هذه الأرض مَن يلزمه الرضا؛ يبقى وراء ذلك دين دائم لا فكاك منه يتقاضاه صاحبه من سرورنا وأهوائنا وآمالنا وأفكارنا، وما صاحبه إلا ذلك الدائن الذي يلف النفس و«المجتمع» والإنسانية والحياة بأسرها في أطواء قدره وقضائه، والذي لا يمكن أن يكون معدومًا موهومًا، ثم لا يمكن أن يكون موجودًا حقيقيًّا ولا يتقاضانا قربانه المختار من صفوة ما نملك ونخبة ما نحب.

إن الإنجليز يعلِّمون كل ما يعلم الفرنسيون من المعارف، ويمارسون كل ما يمارسه أولئك من الشهوات، ويفهمون كل ما يفهم جيرانهم الأذكياء من «الطبيعة الآدمية» والحرية الديمقراطية، ولكنك لا ترى في مسارح لندن ما تراه في مسارح باريس، ولا تقرأ في اللغة الإنجليزية ما تقرؤه في اللغة الفرنسية من كتب الخلاعة والمجون، ولا تشعر بالإباحة في بيئة الإنجليز كما تشعر بها في بيئة الفرنسيين، ولِمَ ذاك؟! أمحض رياء ونفاق كما يقول ظرفاء فرنسا الهازلون؟ كلا، وإنما جعل الإنجليز كذلك مَن جعلهم من أصدق الناس إيمانًا، وأصدقهم شعرًا، وأصدقهم رزانةً، وأصدقهم بداهةً في استكناه طبائع بني الإنسان، جعلهم كذلك خُلُقٌ متين يَذكرُ الحرية ولا ينسى الحدود، ويحس بالجانب المحجوب في هذه الدنيا كما يحس بالجانب المكشوف.

لنا أن نعرف «الطبيعة الإنسانية» ولكن علينا ألا ننسى أن الإنسان لم يصعد في سلم الخلق إنسانًا ليظل حيوانًا في كل شيء، ولنا أن نعترف بالشهوات والعيوب ولكن علينا ألا نتخذ من هذا الاعتراف نشيدًا نتغنى به غناء الافتخار ونحرق حوله بخور البشرى والانتصار.